مواقف وبطولات

من ١٠ : ١٤ سنة

الزَّلاقَةُ

عَودةُ الرُّوحِ

كتبها
أحمد تمام

رسمها
محمد نبيل

obeikan.com

شركة سفير
تمام ، أحمد
معارك فاصلة «الزَّلاقَةُ» / أحمد تمام
١٢ ص، ٢٣ × ٢٣ سم
١- معارك فاصلة «الزَّلاقَةُ»
٢- الأطفال - تعليم
أ- تمام ، أحمد ب- العنوان
ديوى/ ٩٥٣

جميع الحقوق محفوظة لشركة سفير

رقم الإيداع: ١٣٩٦٠ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى: 4 - 286 - 361 - 977 :ISBN

جَلَسَ «المُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّـادٍ» أَمِيـرُ «إِشْـبِيلِيَّة» فِى قَاعَةِ حُكْمِهِ، وَمَعَهُ عَدَدٌ مِنْ مُلُوكِ الأَنْدَلُسِ وَأُمَرَائِهَا، يَتَقَدَّمُهُم «المُتَوَكِّلُ بْنُ الأَفْطَسِ» أَمِيرُ «بَطَلْيُوسَ»، وَ«عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُلُقِين» أَمِيرُ «غِرْنَاطَةَ» .. وَجَلَسَ الجَمِيعُ يُفَكِّرُونَ فِى وَسِيلَةٍ لِلْخُرُوجِ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ مَذَلَّةٍ وَهَوَانٍ.

قَالَ أَحَدُهُمْ : لَقَدْ سَيْطَرَ «أَلْفُونْسُو السَّادِسُ» مَلِكُ «قَشْتَالَةَ» عَلَى مَقَالِيدِ الأُمُورِ فِى بِلادِنَا، وَأَصْبَحْنَا جَمِيعًا نَسْتَرْضِيهِ وَنَطْلُبُ وُدَّهُ، وَنُرْسِلُ إِلَيْهِ الهَدَايَا وَالهِبَاتِ وَالأَمْوَالَ.

– لكِنَّ هَذَا لَمْ يَعُدْ كَافِيًا .. إِنَّهُ يُطَالِبُنَا دَائِمًا بِالمَزِيدِ.

– لَقَدْ صِرْنَا كَالعَبِيدِ، عَلَيْنَا أَنْ نَسْمَعَ وَنُطِيعَ.

– إنَّنَا أَضْعَفُ مِنْ أَنْ نُوَاجِهَهُ مَعًا.

ثُمَّ قَطَعَ «المُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ» النِّقَاشَ الدَّائِرَ بِصَوْتِهِ الهَادِئِ، قَائِلا لِلْحَاضِرِينَ.

لا خُرُوجَ لِمَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ ضَعْفٍ إلا بِالاسْتِعَانَةِ بِـ «يُوسُفَ بْنِ تَاشُفِينَ» أَمِيرِ دَوْلَةِ المُرَابِطِينَ الفَتِيَّةِ بِالمَغْرِبِ، وَهُوَ رَجُلٌ فَارِسٌ شُجَاعٌ، صَادِقُ الإِيمَانِ، نَضَعُ أَيْدِينَا فِي يَدَيْهِ، وَنَقِفُ جَمِيعًا فِي وَجْهِ العَدُوِّ.

غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ الحَاضِرِينَ تَرَدَّدَ فِي قَبُولِ هَذِهِ الفِكْرَةِ، وَخَشَوا أَنْ يَطْمَعَ «يُوسُفُ بْنُ تَاشُفِينَ» فِي بِلادِهِمْ فَيَسْتَوْلِي عَلَيْهَا، وَيَضُمُّهَا إِلَى دَوْلَتِهِ، وَلَمَّا سَمِعَ «المُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ» هَذَا الكَلامَ خَافَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي عَدَمِ الاسْتِعَانَةِ بِالمُرَابِطِينَ، وَقَالَ كَلِمَتَهُ المَشْهُورَةَ : «رَعْيُ الجِمَالِ خَيْرٌ مِنْ رَعْيِ الخَنَازِيرِ». وَيَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنَّهُ يُفَضِّلُ أَنْ يَكُونَ أَسِيرًا لَدَى أَمِيرِ المُسْلِمِينَ «يُوسُفَ بْنِ تَاشُفِينَ» يَرْعَى جِمَالَهُ، عَنْ أَنْ يَكُونَ أَسِيرًا لَدَى مَلِكِ «قَشْتَالَة» النَّصْرَانِي يَرْعَى خَنَازِيرَهُ.

اقْتَنَعَ الحَاضِرُونَ بِضَرُورَةِ الاسْتِعَانَةِ بِقُوَّاتِ المُرَابِطِينَ فِي المَغْرِبِ، وَقَامُوا بِاخْتِيَارِ أَعْضَاءِ الوَفْدِ الذِي سَيُسَافِرُ لِمُقَابَلَةِ «يُوسُفَ بْنِ تَاشُفِينَ»، وَتَشَكَّلَ الوَفْدُ مِنَ العُلَمَاءِ وَالقُضَاةِ، فَعَبَرُوا مَضِيقَ «جَبَلِ طَارِقٍ»، وَاتَّجَهوا إِلَى «مَرَّاكُشَ» حَيْثُ يُقِيمُ «يُوسُفُ بْنُ تَاشُفِينَ».

وَعَرَضَ الوَفْدُ عَلَى السُّلْطَانِ مَأْسَاةَ المُسْلِمِينَ فِي بِلادِهِم، وَأَنَّهُمْ جَاءُوا إِلَيْهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَعَاوَنَ مَعَ مُلُوكِ الأَنْدَلُسِ فِي مُحَارَبَةِ «أَلْفُونْسُو السَّادِسِ» الذِي نَهَبَ أَرَاضِيهِم وَخَرَّبَ دِيَارَهُمْ، وَلَمَّا انْتَهَى الوَفْدُ مِنْ عَرْضِ مَطْلَبِهِم. أَطْرَقَ أَمِيرُ المُرَابِطِينَ يُفَكِّرُ فِي مُعَالَجَةِ الأَمْرِ، وَكَانَ عَلَى عِلْمٍ بِمَا يَدُورُ هُنَاكَ، وَوَعَدَ الوَفْدَ خَيْرًا، وَبَعْدَ أَنْ خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ اسْتَدْعَى أَهْلَ الرَّأْيِ وَالمَشُورَةِ مِنَ الفُقَهَاءِ وَكِبَارِ رِجَالَتِهِ، وَاسْتَشَارَهُمْ فِيمَا جَاءَ وَفْدُ الأَنْدَلُسِ مِنْ أَجْلِهِ، فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسْرِعَ فِي نَجْدَةِ إِخْوَانِهِ المُسْلِمِينَ الذِينَ يَتَعَرَّضُونَ لِظُرُوفٍ قَاسِيَةٍ.

وَبَدَأَتْ قُوَّاتُ المُرَابِطِينَ فِي العُبُورِ مِنْ مَدِينَةِ «سَبْتَةَ» المَغْرِبِيَّةِ عَلَى مَتْنِ السُّفُنِ إِلَى الجَزِيرَةِ الخَضْرَاءِ فِي الأَنْدَلُس،

يَقُودُهُمْ «دَاوُدُ بْنُ عَائِشَةَ»، وَظَلَّتِ الجُيُوشُ المُرَابِطِيَّةُ تَعْبُرُ تِبَاعًا، حَتَّى عَبَرَ «يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينَ» مَضِيقَ جَبَلِ طَارِقٍ إِلَى الأَنْدَلُسِ فِي يَوْمِ الخَمِيسِ فِي مُنْتَصَفِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ (٤٧٩هـ= ٣٠ من يونيو ١٠٨٦م)، وَجُيُوشُه الجَرَّارَةُ تُحِيطُ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

وَمَا كَادَ يَطَأُ بِقَدَمَيْهِ أَرْضَ الأَنْدَلُسِ حَتَّى سَجَدَ لِلَّهِ شُكْرًا، ثُمَّ أَخَذَ فِي تَحْصِينِ الجَزِيرَةِ وَإِصْلَاحِ أَسْوَارِهَا وَأَبْرَاجِهَا، وَعَيَّنَ لَهَا حَامِيَةً عَسْكَرِيَّةً، وَكَانَ فِي اسْتِقْبَالِ «يُوسُفَ بْنِ تَاشْفِينَ» «عَبْدُ اللَّهِ بْنُ المُعْتَمِدِ ابْنِ عَبَّادٍ» الذِي كَلَّفَهُ أَبُوهُ بِتَسْهِيلِ مُهِمَّتِهِ، وَتَوْفِيرِ المؤَنِ لِلْجَيْشِ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ حَتَّى «إِشْبِيلِيَّةَ».

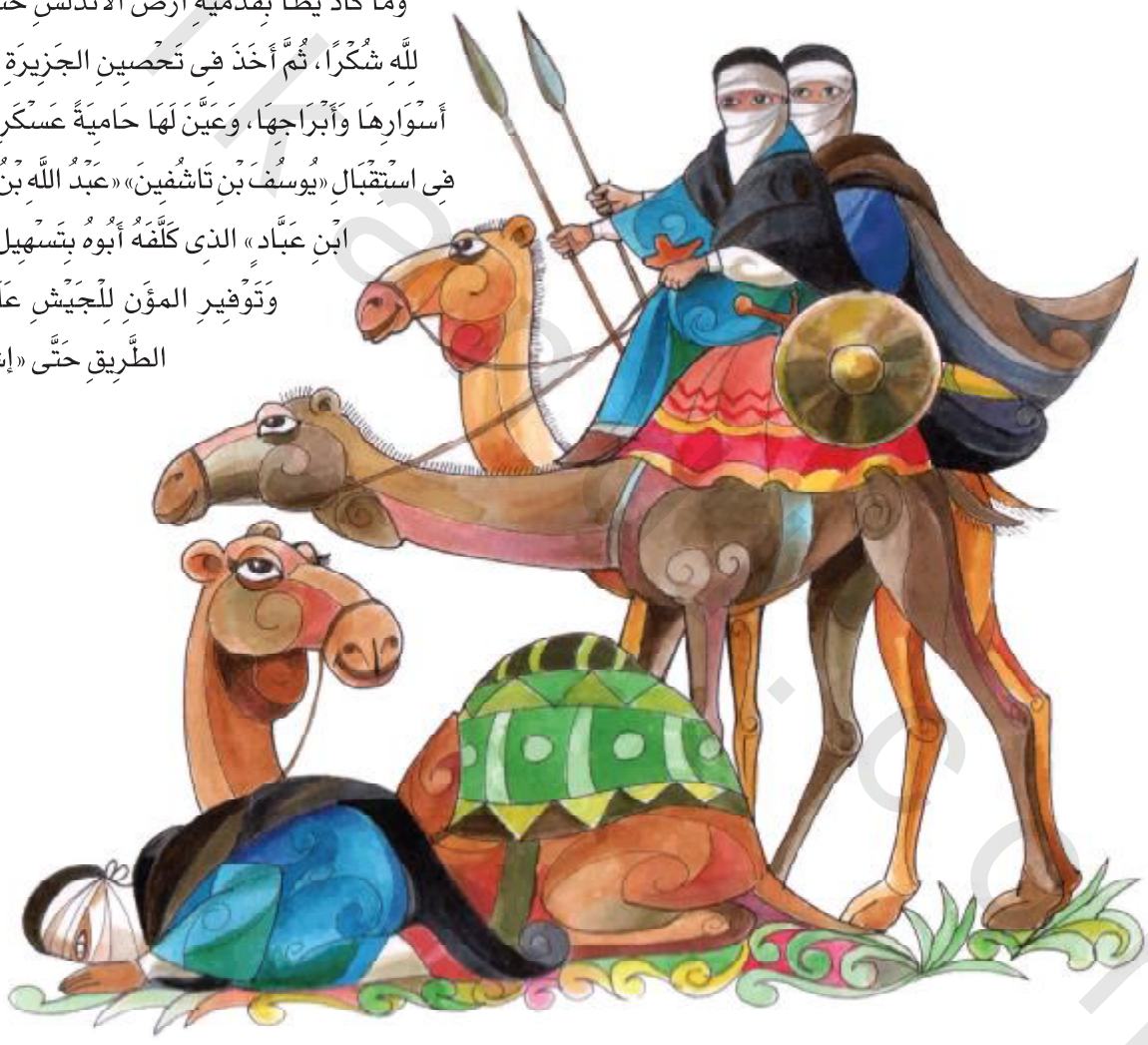

وَوَاصَلَ جَيْشُ المُرَابِطِينَ زَحْفَهُ حَتَّى بَلَغَ مَدِينَةَ «إِشْبِيلِيَّةَ»، فَخَرَجَ لاسْتِقْبَالِهِ «المُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ» مَعَ عَدَدٍ مِنْ كِبَارِ رِجَالِ دَوْلَتِهِ، وَتَعَانَقَ الرَّجُلانِ عِنَاقًا حَارًا، وَقَدَّمَ «المُعْتَمِدُ» لِضَيْفِهِ الكَبِيرِ الهَدَايَا تَعْبِيرًا عَنْ صَادِقِ المَوَدَّةِ وَالإِخْلاصِ، وَأَخْبَرَهُ بِأَحْوَالِ الأَنْدَلُسِ، وَأَحَاطَهُ بِأَخْبَارِ عَدُوِّهِ «أَلْفُونْسُو السَّادِسِ».

وَأَقَامَ المُرَابِطُونَ فِي «إِشْبِيلِيَّةَ» ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، أَرْسَلَ خِلالَهَا «يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينَ» إِلَى سَائِرِ مُلُوكِ الأَنْدَلُسِ، يَدْعُوهُم إِلَى اللِّحَاقِ بِهِ، وَالمُشَارَكَةِ فِي الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَلَبَّى دَعْوَتَهُ كَثِيرٌ مِنْ مُلُوكِ الأَنْدَلُسِ وَأُمَرَائِهَا.

ثُمَّ اتَّجَهَ بِجُيُوشِهِ الجَرَّارَةِ وَمَعَهُ قُوَّاتُ «المُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ» إِلَى «بَطَلْيُوسَ»، فَخَرَجَ لاسْتِقْبَالِهِ أَمِيرُهَا «عُمَرُ المُتَوَكِّلُ» فَاسْتَقْبَلَهُ أَحْسَنَ اسْتِقْبَالٍ، وَأَقَامَ هُنَاكَ عِدَّةَ أَيَّامٍ يَنْتَظِرُ قُدُومَ المُجَاهِدِينَ وَالمُتَطَوِّعِينَ مِنْ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ، وَيَقُومُ بِإِعْدَادِ الخُطَّةِ، وَتَوْزِيعِ الجُنْدِ وَدِرَاسَةِ أَرْضِ المَعْرَكَةِ.

انْتَظَمتِ القُوَّاتُ الإسْلامِيَّةُ إلَى جَيْشَيْنِ كَبِيرَيْنِ؛ القُوَّاتِ الأنْدَلُسِيَّةِ فِى جَيْشٍ مُسْتَقِلٍّ تَحْتَ قِيَادَةِ «المُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ»، وَاحْتَلَّتِ المُقَدِّمَةَ، وَقُوَّاتِ المُرَابِطِينَ فِى جَيْشٍ مُسْتَقِلٍّ، وَاحْتَلَّتِ المُؤَخِّرَةَ، وَأَخَذَتْ هَذِهِ القُوَّاتُ فِى التَّحَرُّكِ فِى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ، تَهْتَزُّ مِنْ تَحْتِهِمُ الأرْضُ، وَيَمْلأُ تَكْبِيرُهُم أَرْجَاءَ الفَضَاءِ، كُلُّهُم حَمَاسٌ وَرَغْبَةٌ فِى الجِهَادِ، وَوَاصَلَتِ القُوَّاتُ الإسْلامِيَّةُ سَيْرَهَا حَتَّى انْتَهَتْ إلَى سَهْلٍ يَقَعُ شَمَالِىَّ «بَطْلَيُوسَ» يُعْرَفُ بِالزَّلاقَةِ، عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ حُدُودِ «البُرْتُغَالِ» الحَالِيَّةِ.

تَرَامَتْ أَنْبَاءُ عُبُورِ قُوَّاتِ المُرَابِطِينَ إلَى «أَلْفُونْسُو السَّادِسَ» وَهُوَ يُحَاصِرُ مَدِينَةَ «سَرَقُسْطَةَ» الأنْدَلُسِيَّةِ، وَكَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَى الْتِهَامِ المُدُنِ الأنْدَلُسِيَّةِ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَطَرْدِ سُكَّانِهَا المُسْلِمِينَ، وَشَجَّعَهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ مِنْ يَرْدَعُهُ وَيَقِفُ فِى وَجْهِهِ.

لَكِنَّ هَذِهِ المَرَّةَ كَانَ الأَمْرُ مُخْتَلِفًا .. إِنَّ الأَنْدَلُسِيِّينَ يَسْتَنْجِدُونَ بِالمُرَابِطِينَ مِنَ المَغْرِبِ، وَهُمْ أَهْلُ حَرْبٍ وَقِتَالٍ وَشَجَاعَةٍ وَبَسَالَةٍ .. فَفَكَّ «أَلْفُونْسُو» حِصَارَهُ لِسَرَقُسْطَةَ وَأَخَذَ يَتَدَبَّرُ المَوْقِفَ، وَجَمَعَ لِذَلِكَ بِطَانَتَهُ وَأَرْكَانَ دَوْلَتِهِ، وَأَهْلَ الرَّأْيِ وَالمَشُورَةِ عِنْدَهُ، فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يَحْشِدَ كُلَّ مَا يَسْتَطِيعُ جَمْعَهُ مِنْ قُوَّاتٍ وَعَتَادٍ، وَأَنْ يَسْتَعِينَ بِالمُتَطَوِّعِينَ مِنْ أَنْحَاءِ أُورُبَّا .

وَبَعْدَ أَنِ اطْمَأَنَّ «أَلْفُونْسُو» إِلَى قُوَّةِ اسْتِعْدَادَتِهِ اتَّجَهَ بِقُوَّاتِهِ البَالِغَةِ ثَمَانِينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ إِلَى الجَنُوبِ لِمُلَاقَاةِ المُرَابِطِينَ، وَهُوَ وَاثِقٌ كُلَّ الثِّقَةِ بِأَنَّ النَّصْرَ سَيَكُونُ قَرِيبًا، وَأَنَّهُ سَيَسْحَقُ المُسْلِمِينَ مِثْلَمَا فَعَلَ مِنْ قَبْلُ، وَصَوَّرَتْ لَهُ أَحْلَامُهُ أَنَّهُ سَيُنَصِّبُ نَفْسَهُ مَلِكًا عَلَى الأَنْدَلُسِ كُلِّهَا بَعْدَ أَنْ يَطْرُدَ المُسْلِمِينَ مِنْهَا وَيَعُودُ مُنْتَصِرًا إِلَى عَاصِمَةِ مُلْكِهِ «طُلَيْطِلَةَ» التِي اغْتَصَبَهَا مِنَ المُسْلِمِينَ، حَيْثُ يَنْتَظِرُهُ الآلَافُ مِنْ شَعْبِهِ، يَرْمُونَهُ بِالوُرُودِ وَالأَزَاهِيرِ، وَيَرْفَعُونَهُ عَلَى الأَعْنَاقِ تَقْدِيرًا لِمَا فَعَلَ ..

وَمَا كَادَ يَفِيقُ مِنْ أَحْلامِهِ حَتَّىٰ أَصْبَحَ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ جَيْشِ المُسْلِمِينَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا نَهْرٌ، فَنَزَلَ بِهَذَا المَكَانِ وَقَامَ بِتَنْظِيمِ قُوَّاتِهِ وَالاسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ.

كَانَتِ الجُيُوشُ الإِسْلامِيَّةُ قَدْ أَتَمَّتِ اسْتِعْدَادَاتِهَا، وَتَنْتَظِرُ إِشَارَةً مِنْ أَمِيرِ المُرَابِطِينَ لِخَوْضِ المَعْرَكَةِ، وَكَانَ قَدْ أَرْسَلَ إِلَى «أَلْفُونْسُو السَّادِسَ» يَدْعُوهُ إِلَى أَنْ يَقْبَلَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلاثٍ، إِمَّا أَنْ يَدْخُلَ فِي الإِسْلامِ، أَوْ يَدْفَعَ الجِزْيَةَ لِلْمُسْلِمِينَ أَوْ يَقْبَلَ الحَرْبَ.

وَمَا كَادَ يَسْمَعُ «أَلْفُونْسُو» هَذَا الكَلامَ حَتَّى اسْتَشَاطَ غَاضِبًا قَائِلا :

– «مَا كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ يَصِلَ الحَدُّ بِالمُسْلِمِينَ الذِينَ كَانُوا يُعْطُونَنِي الجِزْيَةَ أَنْ يَعْرِضُوا عَلَيَّ هَذِهِ الطَّلَبَاتِ».. ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى الرَّسُولِ وَقَالَ لَهُ فِي غُرُورٍ : بَلِّغْ سَيِّدَكَ أَنَّ لِي جَيْشًا سَيَرُدُّ عَلَى هَذَا الكَلامِ الوَقِحِ .. وَلَمَا وَصَلَ كِتَابُ «أَلْفُونْسُو» إِلَى «يُوسُفَ بْنِ تَاشُفِينَ» اكْتَفَى فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ بِعِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ : الذِي يَكُونُ سَتَرَاهُ.

أَصْبَحَ لا مَفَرَّ مِنَ القِتَالِ وَلَكِنْ مَنْ سَيُحَدِّدُ سَاعَةَ البَدْءِ وَالمُبَاغَتَةِ، فَلَجَأَ «أَلْفُونْسُو» إِلَى الخِدَاعِ، وَأَرْسَلَ بِكِتَابٍ إِلَى «المُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ» بِمِيعَادِ المَعْرَكَةِ يَقُولُ فِيهِ :

– «إِنَّ غَدًا يَوْمَ الجُمُعَةِ وَهُوَ عِيدُكُمْ، وَبَعْدَهُ السَّبْتُ يَوْمُ اليَهُودِ، وَبَعْدَهُ الأَحَدُ وَهُوَ عِيدُنَا، فَيَكُونُ اللِّقَاءُ يَوْمَ الاثْنَيْنِ..»، لَكِنَّ «المُعْتَمِدَ بْنَ عَبَّادٍ» لَمْ يَطْمَئِنْ إِلَى هَذَا الكَلامِ، وَأَدْرَكَ أَنَّ فِي الأَمْرِ خَدِيعَةً، وَجَاءَتْ طَلائِعُهُ تُخْبِرُ أَنَّ مُعَسْكَرَ «أَلْفُونْسُو» فِي حَرَكَةٍ وَضَوْضَاءٍ وَجَلَبَةِ سِلاحٍ، الأَمْرِ الذِي يُؤَكِّدُ أَنَّ العَدُوَّ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِبَدْءِ القِتَالِ، فَانْتَبَهَ المُعْتَمِدُ بْنَ عَبَّادٍ» إِلَى هَذِهِ الخَدِيعَةِ، وَأَمَرَ القُوَّاتِ أَنْ تَكُونَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِمُوَاجَهَةِ أَيِّ هُجُومٍ مُتَوَقَّعٍ.

وَحَدَثَ مَا تَوَقَّعَهُ المُسْلِمُونَ فَمَا كَادَ يَطْلُعُ صَبَاحُ يَوْمِ الجُمُعَةِ المُوَافِقِ (١٢ مِنْ رَجَبٍ ٤٧٩ هـ = ٢٣ مِنْ أَكْتُوبَرَ ١٠٨٦م) حَتَّى زَحَفَ النَّصَارَى، وَأَقْبَلُوا كَالسَّيْلِ عَلَى المُسْلِمِينَ، وَاشْتَبَكُوا مَعَهُمْ فِي قِتَالٍ عَنِيفٍ، وَهَاجَمَتْ قُوَّاتُ «المُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ» التِي لَمْ تَصْمُدْ لِهَذَا الهُجُومِ الضَّارِي فَتَزَحْزَحَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا، وَاخْتَلَّ نِظَامُهَا وَارْتَدَّ مُعْظَمُهَا هَارِبًا بَعِيدًا عَنْ أَرْضِ المَعْرَكَةِ، وَلَمْ يَثْبُتْ إِلا «المُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ» وَبَعْضُ قُوَّاتِهِ التِي دَافَعَتْ دِفَاعَ الأَبْطَالِ، وَكَانُوا مِثَالا لِلشَّجَاعَةِ وَالإِقْدَامِ،

وَتَحَمَّلَ «المُعْتَمِدُ» آلامَ الجِرَاحِ التِى لَحِقتْ بِهِ لَكِنَّهُ لَمْ يُغَادِرِ المَعْرَكَةَ، وَفِى الوَقْتِ نَفْسِهِ امْتَدَّ هُجُومُ «أَلْفُونْسُو» إِلَى مُقَدِّمَةِ «المُرَابِطِينَ» الذِينَ كَانُوا فِى المُؤَخِّرَةِ، وَأَجْبَرُوهَا عَلَى التَّراجُعِ.

كَانَ الوَقْتُ عَصِيبًا عَلَى المُسْلِمِينَ، وَأَمِيرُ المُرَابِطِينَ «يُوسُفُ بْنُ تَاشُفِينَ» عَلَى فَرَسِهِ يُتَابِعُ المَعْرَكَةَ. وَيَرَى ارْتِدَادَ المُسْلِمِينَ وَيُفَكِّرُ فِى حَلٍّ، وَفِى اللَّحْظَةِ التِى طَمِعَ فِيهَا العَدُوُّ فِى النَّصْرِ أَلْقَى «يُوسُفُ» بِقُوَّاتِ البَرْبَرِ، فَنَزَلُوا سَاحَةَ القِتَالِ كَالأُسُودِ الضَّارِيَةِ لِنَجْدَةِ إِخْوَانِهِم، وَنَجَحُوا فِى الوُصُولِ إِلَى قَلْبِ جَيْشِ «أَلْفُونْسُو»، الذِى فُوجِئَ بِهَذِهِ القُوَّاتِ.. وَسُرْعَانَ مَا تَغَيَّرَ سَيْرُ المَعْرَكَةِ، فَاسْتَرَدَّ المُسْلِمُونَ ثَبَاتَهُم، وَعَادَ الفَارُّونَ إِلَى صُفُوفِهِم، وَاشْتَعَلَ القِتَالُ مَرَّةً ثَانِيَةً فِى تَكَافُؤٍ بَعْدَ أَنْ كَادَتِ الكِفَّةُ تَمِيلُ لِصَالِحِ «أَلْفُونْسُو».

وَفِى الوَقْتِ نَفْسِهِ لَجَأَ «يُوسُفُ بْنُ تَاشُفِينَ» إِلَى خُطَّةٍ مُبْتَكَرَةٍ يُفَاجِئُ بِهَا العَدُوَّ، فَتَقَدَّمَ مَعَ قُوَّاتِهِ الاحْتِيَاطِيَّةِ حَتَّى وَصَلَ

إِلَى مُعَسْكَرِ «أَلْفُونْسُو»، وَهَاجَمَهُ بِشِدَّةٍ، وَكَانَتْ تَحْرُسُهُ قُوَّةٌ ضَعِيفَةٌ فَفَتَكَ بِهَا، ثُمَّ هَاجَمَ مُؤَخِّرَةَ جَيْشِ «أَلْفُونْسُو» فَأَحْدَثَ فِيهَا خَلَلا وَاضْطِرَابًا بَعْدَ أَنْ فُوجِئَتْ بِهَذَا الهُجُومِ وَسَقَطَ مِئَاتُ القَتْلَى وَالجَرْحَى، ثُمَّ قَامَتْ بِإِحْرَاقِ مُعَسْكَرِ «أَلْفُونْسُو».

وَلَمَّا عَلِمَ «أَلْفُونْسُو» بِمَا حَلَّ فِي مُعَسْكَرِهِ حَاوَلَ الرُّجُوعَ لِإِنْقَاذِ مَا يُمْكِنُ إِنْقَاذُهُ لَكِنَّهُ اصْطَدَمَ بِقُوَّاتِ المُرَابِطِينَ، وَوَقَعَتْ بَيْنَهُمَا مَعَارِكَ ضَارِيَةً، وَلَمْ يَسْتَطِعْ «أَلْفُونْسُو» الوُصُولَ إِلَى مُعَسْكَرِهِ إِلا بَعْدَ خَسَائِرَ فَادِحَةٍ.

كَانَ «يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينَ» أَثْنَاءَ المَعْرَكَةِ فَوْقَ فَرَسِهِ يَصُولُ وَيَجُولُ، يَقُودُ المَعْرَكَةَ، وَيُحَرِّكُ الكَتَائِبَ وَالصُّفُوفَ، وَيَحُثُّ جُنُودَهُ عَلَى الثَّبَاتِ وَالصُّمُودِ، يَصْرُخُ فِيهِمْ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : أَنْ تَشَجَّعُوا أَيُّهَا المُسْلِمُونَ، أَعْدَاءُ اللَّهِ أَمَامَكُمْ، وَالجَنَّةُ تَنْتَظِرُكُمْ، وَطُوبَى لِمَنْ نَالَ الشَّهَادَةَ.

وَفِى اللَّحْظَةِ التى شَعَرَ فيهَا «يُوسُفُ بْنُ تَاشُفِينَ» بِأَنَّ التَّعَبَ بَدَأَ يَحِلُّ بِجَيْشِ «أَلْفُونْسُو» أَلْقَى بِحَرَسِهِ الأُسُودِ البَالِغِ عَدَدُهُ أَرْبَعَةَ آلاف إِلَى قَلْبِ المَعْرَكَةِ، وَكَانَ يَدَّخِرُهُمْ لِمَوْقِفٍ مِثْلَ هَذَا، وَاسْتَطَاعَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَصِلَ إِلَى «أَلْفُونْسُو» وَيَطْعَنُهُ فِى فَخِذِهِ، فَأَحْدَثَ ذَلِكَ هَلَعًا فِى نَفْسِهِ وَالمُحِيطِينَ بِهِ مِنْ قَادَةِ جَيْشِهِ، وَأَدْرَكُوا جَمِيعًا أَنَّهُمْ يُوَاجِهُونَ المَوْتَ وَالهَلاكَ إِذَا اسْتَمَرُّوا فِى مَوْقِفِهِمْ، وَكَانَتْ سَاحَةُ القِتَالِ قَدِ امْتَلأَتْ بِجُثَثِ القَتْلَى وَآلافِ الجَرْحَى.

أَيْقَنَ «أَلْفُونْسُو» بِالهَزِيمَةِ فَلَجَأَ إِلَى تَلٍّ قَرِيبٍ يَعْتَصِمُ بِهِ وَمَعَهُ عَدَدٌ مِنْ فُرْسَانِهِ حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ وَحَلَّ ظَلامُهُ وَلَّى هَارِبًا وَمَنْ مَعَهُ إِلَى «طُلَيْطِلَةَ» عَاصِمَةِ مُلْكِهِ يَجُرُّ أَذْيَالَ الخِزْيِ وَالهَزِيمَةِ.

وَفِى صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِى طَارَدَ المُسْلِمُونَ مَنْ بَقِىَ مِنْ جَيْشِ «أَلْفُونْسُو»، وَقَامُوا بِجَمْعِ الغَنَائِمِ وَكَانَتْ أَشْيَاءَ هَائِلَةً، وَذَاعَتْ أَنْبَاءُ هَذَا النَّصْرِ العَظِيمِ فِى سَائِرِ أَنْحَاءِ الأَنْدَلُسِ، فَاسْتَبْشَرَ المُسْلِمُونَ خَيْرًا بَعْدَ أَنْ كَادَ اليَأْسُ أَنْ يَقْتُلَ كُلَّ أَمَلٍ لَهُمْ فِى الحَيَاةِ الكَرِيمَةِ فِى بِلادِهِمْ.